الفصل السادس
السياسة الخارجية المستقلة

مقدمة

يمكن القول أن أبرز الاتجاهات الرئيسية التي تميز فلسفة الحكم عند الرئيس سانكارا تتمثل في تقديره الكبير لمفهوم الوطنية والتزامه الشديد باحترام مبادىء السيادة الوطنية واحترام إرادة الجماهير.ولعل ذلك يتضح بجلاء من استخدامه، كما ذكرنا ، في عملية الحشد الشعبي شعار: «الوطن أو الموت. سوف ننتصر». وعليه فقد اتخذ موقفا حازما في تأييده للشعوب المظلومة في جنوب أفريقيا وناميبيا وغيرها من المناطق. وقد قاد بنفسه حملة نشطة ضد نظام الفصل العنصري. ففي محاضرة عامة له أدان الزيارة الرسمية التي قام بها رئيس جنوب أفريقيا بيتر بوتا إلى فرنسا.وقد اعتبر أن الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران شريك بشكل غير مباشر في الجرائم التي ارتكبها نظام الفصل العنصري. لم يكن الأمر بهذه البساطة أن ينتقد زعيم أفريقي ، وخاصة من دولة أفريقية فقيرة ومعتمدة على المساعدات،السياسات التي تنتهجها فرنسا.

رفض مبدأ الإملاء في السياسة الخارجية :

كان سانكارا يؤمن بضرورة إعلاء مبادىء الاحترام المتبادل والمعاملة بالمثل في جميع تفاعلات العلاقات الدولية. ولعل من أبرز مبادراته بعدما تولى منصب الرئاسة في بلاده ، أنه طلب من شركاء التنمية التوقف عن استخدام مفهوم «المساعدات الخارجية»، وعوضا عن ذلك وصفها باسم «المساعدة المتبادلة»، وقد جادل في ذلك بقوله: «إذا كانت بوركينا فاسو غير قادرة على تقديم الهدايا المالية إلى فرنسا، فإن المهاجرين القادمين إليها ويطوفون شوارع باريس كل يوم

مقابل أجور هزيلة ينبغي النظر إليهم باعتبارهم شكلا من أشكال التعويض المتبادل من قبل الأفارقة». هذه الحجة المتعلقة بمبدا المعاملة بالمثل، والتي تفترض عولمة سوق العمل، تبدو أكثر منطقية عندما تركز المساعدات الخارجية على الجانب الفني والتقني، في نفس الوقت الذي توفر فيه الدول الأفريقية العمالة الفائضة إلى أوروبا. وكما بينا سابقا فإن استراتيجية التنمية التي انتهجها سانكارا اعتمدت إلى حد كبير على الالتزام بالحفاظ على سيادة بلاده وسلامة أراضيها، في ذات الوقت الذي يعمل فيه على تلبية تطلعات الناس والعمل من أجل تحسين أحوالهم المعيشية.

أعلن سانكارا مساندته لكافة الشعوب المظلومة في جميع أنحاء العالم. وفي صيف ١٩٨٤ قاطعت بلاده دورة الألعاب الأولمبية المقامة في الولايات المتحدة الأمريكية . وقال سانكارا في ذلك الوقت: «قررت فولتا العليا عدم الذهاب، وأيدت بوركينا فاسو هذا القرار[١] – ليس ذلك بسبب عدم وجود الأمل لدينا في العودة بالميداليات ، لا! – ولكن من حيث المبدأ هذه الألعاب، مثل جميع المحافل الأخرى، ينبغي استخدامها للتنديد بأعدائنا وبنظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. إننا لا يمكن أن نشارك في هذه الألعاب جنبا إلى جنب مع أولئك الذين يدعمون السياسات العنصرية في جنوب أفريقيا، وأولئك الذين يرفضون التحذيرات والإدانات التي يطلقها الأفارقة من أجل إضعاف جنوب أفريقيا العنصرية. نحن لا نتفق مع هذه الدول وقد اخترنا عدم المشاركة في المباريات، حتى لو كان ذلك يعني عدم الذهاب مطلقا إلى دورة الألعاب الأوليمبية الأخرى »[٢] .

وعلى الرغم من أن هذه السياسات الخارجية قد جعلت دولا غربية كثيرة تناصبه العداء فإنه وجد في ظل عالم الحرب الباردة مساندة من دول أخرى. ففي سبتمبر ١٩٨٤، حصل سانكارا على أعلى تكريم من الحكومة الكوبية، وهو وسام

(١) يعد ذلك تأكيدا على صلابة موقف سانكارا ورفضه مبدأ المشاركة في هذه الدورة الرياضية حيث أن القرار قد اتخذ قبل تغيير اسم بلاده ليصبح بوركينا فاسو.

(2)Thomas Sankara Speaks,' p. 71.

خوسيه مارتي، والذي يعد، كما قال وزير الثقافة الكوبى، أرماندو هارت:« عربون اعتراف بجدارة أولئك الذين قدموا خدمات متميزة لقضايا شعوبهم وللعلاقات بين بلدينا من أجل الكرامة والشرف؛ أو للنضال ضد الإمبريالية والسيطرة الاستعمارية والاستعمار الجديد، أومن أجل التحرر الحقيقي». وفي حفل تسلمه الجائزة، قال سانكارا عن خوسيه مارتي العظيم: 'هذا الرجل الذي توفي في دوس ريوس وهو يناضل من أجل حرية جميع شعوب العالم ينتمي إلينا جميعا - لكوبا وبوركينا فاسو[1]» .

لقد اتهم سانكارا السياسة الخارجية الأمريكية بالرجعية وأدان مواقفها تجاه الكثير من الأزمات الدولية ولاسيما في غرينادا وليبيا. كان يعتقد جازما أن الرئيس رونالد ريجان بمقدوره إلغاء نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا بجرة قلم. لم يكن مستغربا أن ترفض السلطات الأمريكية عام ١٩٨٤ السماح لطائرته بالوصول إلى أطلانطا حينما كان قادما من كوبا ومتوجها لمقابلة أندرو يانج. وعوضا عن ذلك اضطر سانكارا إلى الذهاب إلى كندا في طريقه للجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك. وقد استقبل استقبالا حارا في هارلم من قبل المواطنين الأمريكيين من أصول أفريقية. وحينما سئل هل سيزور «البيت الأبيض» رد باستهزاء غير خاف إن «هارلم السوداء تعادل عندي البيت الأبيض»[2]. وقد أبدى سانكارا اهتماما كبيرا بفكرة سعي القس جيسي جاكسون الترشح لرئاسة الولايات المتحدة وأبدى استعداده لدعمه ولقائه في واغادوغو. وأحسب أنه لو قدر لسانكارا الحياة حتى يرى صعود باراك أوباما وتولية السلطة في البيت الأبيض لأعاد حساباته مرة أخرى وتحدث عن معني إحداث قطيعة مع مؤسسات الحكم القائمة.

ومن أبرز الأمثلة على رفضه سياسات الهيمنة من قبل المؤسسات الدولية المانحة مشروع خط سكة حديد واغادوغو تامباو. فقد استهدف هذا المشروع الضخم تنمية المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد الغنية بالموارد المعدنية

(1)Ibid, p.77.

(2)Ibid, p.81.

ولاسيما المنجنيز عالي الجودة . بيد أن الولايات المتحدة واليابان سحبت تمويلهما للمشروعين عندئذ دشن سانكارا في فبراير ١٩٨٥ ما أسماه «معركة السكة الحديد» لتنفيذ المشروع بالجهود الذاتية وعن طريق العمل الطوعي للمواطنين الشرفاء.

سانكارا ومفهوم الوحدة الأفريقية

كان واضحا أن مفهوم سانكارا عن الوحدة الأفريقية لم يكن مناهضا للشعوب الأخرى في العالم، لقد كان مطابقا تماما للأخلاقيات الأفريقية المستمدة من ثقافة أوبونتو التي تتبنى الحب الحقيقي للبشرية جمعاء المتنوعة والمذاهب والأعراق. لقد بذلت محاولة لتعريف الأوبونتو من قبل رئيس الأساقفة ديزموند توتو عام ١٩٩٩بقوله :« يعيش الشخص المؤمن بثقافة أوبونتو منفتحا وتحت خدمة الآخرين، مؤكدا للآخرين، عدم الشعور بالتهديد نظرا لقدرة ومكانة الآخرين ، لأن كل واحد لديه تأكيدات ذاتية سليمة تشير إلى أن الفرد ينتمي إلى الكل الأشمل وأنه يتأثر سلبا إذا تم إذلال الآخرين أو تم تعريضهم للتعذيب أو الاضطهاد[١]».

وقد عرفها نيلسون مانديلا على النحو التالي: «إذا توقف المسافر في بلد ما عند قرية فإنه لا يسأل عن الطعام أو الشراب. إنه فور توقفه يقدم له الناس الطعام ويقومون على راحته. وهذا جانب واحد من أوبونتو التي تملك أبعادا أخرى متعددة. الأوبونتو لا تعني عدم قيام الناس بالحديث عن أنفسهم. وعليه يصبح التساؤل هو: هل تقوم بذلك من أجل تمكين المجتمع حولك من التطور؟»[٢].

يقول توماس سانكارا: « إن نضالنا هو دعوة للبناء. ولكن مطلبنا ليس بناء عالم للسود وحدهم موجه ضد الآخرين.ونحن نريد تعليم الآخرين كيف يحبون

(١)Battle, Michael. Ubuntu: I in You and You in Me. New York: Seabury Books, 2009.

(٢)https://www.youtube.com/watch?v=-wNwQMeis_4

بعضهم البعض تماما مثل السود». وعلى الرغم من التزام سانكارا بمبدأ الوحدة الأفريقية فإنه اصطدم بوجود قادة في دول الجوار اعتبرهم من قوى الثورة المضادة. وعلى سبيل المثال فإن تصريحاته المبكرة حول تصدير الثورة واستعداده للمساهمة في حدوث ثورات مماثلة في أماكن أخرى أزعجت النخب الحاكمة في مالي والنيجر وساحل العاج. لم يكن غريبا أن تتوتر علاقات بوركينا فاسو بساحل العاج حيث كان سانكارا يعتقد بأن الفرنسيين أسهموا في تنمية مستعمرة ساحل العاج على حساب بوركينا فاسو، كما أن الرئيس بوانيه كان يتبني سياسات غير عادلة إزاء العمالة البوركينابية المهاجرة في بلاده. وعلى صعيد العلاقات مع مالي فإننا نجد أنها تجاوزت أزمة الثقة بين سانكارا والرئيس موسى تراوري لتأخذ بعد التنافس على الإقليم الحدودي المتنازع عليه بين البلدين.

الانتماء إلى حركة العالم الثالث

لقد كان توماس سانكارا مؤمنا بأهمية الانتماء إلى عالم عدم الانحياز الذي يجمع بين القارات الثلاث أسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، حيث ناضلت شعوب هذه القارات ضد نفس الأعداء. ولعل ذلك هو ما دعا سانكارا إلى القول في حديثه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٤ أكتوبر ١٩٨٤ أن بلاده تشكل جزءاً أصيلاً من فضاء العالم الثالث. يقول سانكارا: «إنني لا أدعي إرساء أي مبادئ هنا. فأنا لست منقذاً أو نبياً. كما أني لا أدعي امتلاك الحقيقة. إنني أتطلع فقط إلى أمرين: أولهما أن أتحدث نيابة عن شعبي بوركينا فاسو بكلمات بسيطة وواضحة، وثانياً أن أتحدث أيضاً نيابة عن الشعوب المحرومة في العالم، هذه الشعوب التي تنتمي إلى ما يسمى بالعالم الثالث ... لعل ذلك هو ما يظهر اهتمامنا بالأمم المتحدة. إنا نتفهم أن المطالبة بحقوقنا تتطلب منا وعياً صريحاً وقوياً بالواجبات الملقاة على كواهلنا. ليس بمستغرب أن ترتبط فولتا العليا سابقا، بوركينا فاسو اليوم، بهذا المركب المسمى العالم الثالث، والذي ابتدعه العالمين الآخرين عندما حصلت كثير من الدول على استقلالها وذلك للتوكيد على اغترابنا الفكري والثقافي

والاقتصادي والسياسي»[1].

ويرى سانكارا أن مبدأ الانتماء لعالم القارات الثلاث يعني التضامن والتلاحم. وقد اقتبس الرجل مقولة المناضل والأديب الكوبي الكبير جوزيه مارتي «الشعور بالألم الذي يتعرض له أي رجل في العالم». أو بعبارة أخرى أن شعوب العالم الثالث مثل الجسد الواحد الذي يتداعي بمرض أحد أعضائه. وعليه فإنه يطالب النخبة المثقفة في أفريقيا والعالم الثالث إلى تحمل مسئوليتها التاريخية من أجل التعبير عن آمال وتطلعات شعوبهم. يقول سانكارا:

«على هذه النخب من رجال أفريقيا والعالم الثالث العودة إلى أنفسهم قبل فوات الأوان، من أجل فهم مجتمعاتهم وأوضاعهم البائسة الموروثة. عليهم أن يفهموا أن النضال الفكري من أجل الجماهير المحرومة لا يمكن أن يذهب سدى. إن عليهم أن يفهموا كذلك ضرورة أن يكون النضال مبدعاً وحقيقياً كي يصبح مؤثراً على الصعيد الدولي، ولن يتأتي ذلك إلا من خلال رسم صورة مخلصة لشعوبهم. إذ تسمح تلك الصورة لشعوبهم تحقيق التغيرات الأساسية في المواقف السياسية والاجتماعية، الأمر الذي يمكنهم من إحداث القطيعة المرجوة مع الهيمنة والاستغلال الأجنبي والذي لم يترك لبلداننا أي خيار سوى الإفلاس»[2].

العلاقة مع فرنسا

لم تكن فرنسا، وهي الدولة الاستعمارية السابقة، سعيدة بوصول توماس سانكارا إلى السلطة حيث تسببت موافقة الدولية ونمط سياسته الخارجية المستقل في شعور باريس بالقلق الشديد. صحيح أن بوركينا فاسو لم تكن يوماً قلب الوجود الاستراتيجي الفرنسي في غرب أفريقيا الفرنكفونية بسبب صعوبة مناخها وفقرها الشديد، ومع ذلك فإنها كانت بمثابة مخزون احتياطي للمراكز الاستعمارية الفرنسية الأخرى مثل ساحل العاج ومالي. وعلى أية حال فإن السياسة الفرنسية

(1)Sankara, We Are Heirs….., p 60

(2)Ibid ,p.63.

تعرضت لانتقادات لاذعة بين الحين والآخر من قبل توماس سانكارا.

ولعل أبرز مثال على توتر العلاقات الفرنسية البوركينابية ما حدث بين سانكارا والرئيسي فرانسوا ميتران أثناء حفل العشاء الذي أقيم على شرف الأخير في واعادغو في نوفمبر ١٩٨٦. لقد كانت كلمات سانكارا حادة وقوية في انتقاد سياسة ضيفه الاشتراكي حيث دعاه إلى أن تطابق أفعاله أقواله. إذ اتهم سانكارا فرنسا بأنها وقفت مكتوفة اليدين ولم تفعل شيئاً لوقف الحرب العراقية الإيرانية أو الحرب الإقليمية في تشاد. كما وجه سانكارا انتقاداً لاذعاً للرئيس ميتران شخصياً نظرا لاستقباله في قصر الاليزيه بيتر بوتا رئيس نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقا. على أن ميتران حاول استيعاب الموقف بدهاء شديد لا يخلو من غطرسة استعلائية حيث رفع كأسه من أجل تعزيز الصداقة الفرنسية البوركينابية قائلاً: إن الكابتن سانكارا لا يزال في ريعان الشباب، ولكنه بالغ الحدة كذلك. إذا كنت بحاجة إلينا دعنا نعلم ذلك، وإن لم تكن نستطيع تجاوز ذلك»[١].

وتشير بعض التقارير إلى محاولة فرنسا الدءوبة زعزعة نظام الحكم في بوركينا فاسو ولعل من أبرز تلك المحاولات، تقديمها السلاح لحكومة جان باتست في مايو ١٩٨٣ عندما تم اعتقال توماس سانكارا وذلك لضمان عدم عودته للسلطة، كما رفضت باريس استقبال الرجل الثاني في المجلس الوطني للثورة عام ١٩٨٤ بليز كومبابوري وذلك من أجل التفاوض لعودة المساعدات الفرنسية. وثمة من يرجع الحرب الحدودية التي نشبت بين بوركينا فاسو ومالي وراح ضحيتها نحو ثلاثمئة شخص عام ١٩٨٥ أنها كانت تدار لصالح فرنسا[٢]. ويبدو أن سانكارا نفسه قد دفع حياته ثمناً لتمرده على واقع الهيمنة الفرنسي في محيطها الجيواستراتيجي بمنطقة غرب أفريقيا.

(1)see the fall of thomas sankarai or why you cant make revolution, p37.

(٢) يرتبط النزاع الحدودي بين مالي وبوركينا فاسو بقطاع أغاشير Agacher في شمال بوركينا فاسو. وكانت المنطقة،وقد تحول النزاع إلى حرب عنيفة في مناسبتين أحدهما عام ١٩٧٤ والثانية عام ١٩٨٥ . وتعزى أسباب النزاع إلى احتواء الشريط الحدودي على موارد طبيعية ضخمة يسعى كل طرف للسيطرة عليها لتحسين أحوال بلاده المعيشية.

العلاقة مع القوى الاشتراكية

حاول توماس سانكارا أن يدعم علاقة بلاده مع القوى الاشتراكية الدولية والإقليمية للتخفيف من حدة الاعتماد على فرنسا والمعسكر الغربي. وعليه فقد اتجه لتعزيز العلاقات مع نظام جيري رولنجز في غانا حيث تم توقيع معاهدة دفاع مشترك في نوفمبر ١٩٨٣، كما تم تنفيذ بعض المناورات العسكرية المشتركة. ونظراً لأن العلاقة مع ليبيا كانت جيدة، وإن شهدت بعض التوتر نظراً لرفض سانكارا الأخذ بمقترح القذافي الخاص بتبني مبادئ الكتاب الأخضر أو اقامة وحدة بين ليبيا وبوركينا فاسو فإن الخوف من اقامة محور ثلاثي الأبعاد يضم طرابلس وأكرا وواغادوغو كان يقلق بال الفرنسيين والقوى الغربية عموماً.

قام سانكارا بزيارة كل من كوبا والاتحاد السوفيتي وهو ما أثار التساؤل حول إمكانية أن يكون السوفييت بديلاً عن فرنسا، ولكن في واقع الأمر هو انتقال من دائرة إلى أخرى في فلك التبعية. واللافت للانتباه أن المساعدات غير الغربية التي كانت تأتي لبوركينا فاسو كان مصدرها دول من مجموعة عدم الانحياز الموالية للسوفيت مثال ذلك كوبا التي قدمت المساعدات العينية والفنية ولا سيما المساعدة في إنشاء مصنع للسكر في بوركينا فاسو. وقد ساعدت كل من غانا وكوبا وليبيا في بناء ممر مطار العاصمة. تلقت بوركينا فاسو أيضاً مساعدات من أنجولا وموزمبيق وكوريا الشمالية التي أرسلت الحديد والأسمنت لبناء المسارح العامة في واغادوغو وبوبو وديولاسو. كما أسهمت الصين كذلك بحفر عدد من الآبار للتخفيف من حدة نقص المياه في البلاد. وفي إطار دبلوماسية الاستادات الرياضية التي كانت تتبعها الصين لكسب عقول وقلوب الأفارقة تبرعت بكين ببناء «استاد الرابع من أغسطس» وبعض المستشفيات.

مشكلة الدين الخارجي

لقد رفض توماس سانكارا الاعتماد على القروض والمساعدات الممنوحة من المؤسسات الدولية المانحة كي يبتعد عن مسألة المشروطية السياسية. وعوضاً

عن ذلك دعا إلى أهمية الاعتماد على الذات ورفض مقولة حتمية الفقر وكان من أوائل الداعين إلى مفهوم الأمن الغذائي. لقد عمل على تحقيق شعار « وجبتين وعشرة لترات من المياه يومياً لكل فرد». لقد أضحت بوركينا فاسو خلال فترة حكمه أقرب ما تكون إلى الاكتفاء الذاتي. ومع ذلك فإن عبء الدين الخارجي المتراكم على دولته ظل بمثابة الحمل الثقيل وهو ما دعاه إلى المطالبة بعدم سداد هذه الديون. ففي كلمته أمام القمة الأفريقية في أديس أبابا عام ١٩٨٧ طالب بتشكيل جبهة أفريقية متحدة لرفض سداد الديون. ومن العجيب حقاً أن الرجل قالها صراحة أمام الزعماء الأفارقة : «إذا وقفت بوركينا فاسو لوحدها رافضة دفع الديون فإني لن أكون حاضراً في اجتماع القمة القادمة». وبالفعل اغتيل توماس سانكارا بعد أشهر ثلاثة من هذا الخطاب.

يقول سانكارا: لا يمكن سداد الدين. إذا لم نقم بالسداد فإن المقرضين لن يموتون. تأكد من ذلك جيداً، بيد أنه إذا قمنا بالسداد فإننا نحن الهالكون، تأكد من ذلك أيضاً». ويطرح سانكارا رؤية كلية لتحليل أزمة الدين الخارجي في أفريقيا حيث يربط بينها وبين الاستعمار. يقول سانكارا: «إن الذين أقرضونا الأموال هم أنفسهم الذين استعمرونا إنهم نفس الأشخاص الذين أداروا بلادنا من خلال إخوانهم وأبناء عمومتهم الذين قاموا فعلاً بعملية الإقراض.. ليس لدينا أدنى علاقة بهذه الديون. وعليه لن نستطيع دفعها. إن الدين لا يزال يمثل الاستعمار الجديد حيث اتخذ المستعمرون لباساً جديداً حيث لبسوا ثياب الخبراء التقنيين. إنهم الذين أوقعونا في هذه الديون».

ويذهب سانكارا في تحليله لأزمة الديون فيرى أن أوروبا هي المدينة لأفريقيا. فالدماء الأفريقية الذكية هي التي أنقذت أوروبا من الديكتاتورية الهتلرية. بيد أن العقلية الأوروبية المنحازة تذكر دائماً خطة مارشال ولا تتحدث عن خطة أفريقيا التي ساعدت في إنقاذ أوروبا وحررت العالم بأسره من شر النازية.

وعلى أية حال فإن الحملة الدولية من أجل عدم دفع الديون قد اتخذت بعدا

شعبيا منذ عام ١٩٨٢ عندما بدأت المكسيك بعدم الدفع وقد أيد هذه الحملة الزعيم الكوبي فيدل كاسترو. وفي عام ١٩٨٥ قرر رئيس بيرو ألان جارسيا تحديد نسبة لسداد الديون ولكن الولايات المتحدة استطاعت عزله. وفي أفريقيا ابتدأ توماس سانكارا هذه الحملة مطالبا بتكوين جبهة موحدة لعدم تسديد الديون ولكن بعد اغتياله لم يتول أحد من الزعماء الأفارقة طرح الموضوع . وعلى أية حال فقد ظهرت حملات كثيرة مناوئة لهذه الديون داخل دول الشمال نفسها مثل «اللجنة من أجل إلغاء ديون العالم الثالث في بلجيكا» التي رفعت شعار «هذا يكفي» منذ عام ١٩٩٠. وفي نهاية التسعينيات من القرن الماضي نشأت حملة يوبيل ٢٠٠٠ بدعم من الكنيسة وقادت مظاهرات شعبية ضد الديون[١].

(١) أنظر في ذلك: سمير أمين وفرانسوا أوتار، مناهضة العولمة حركة المنظمات الشعبية في العالم، القاهرة :مكتبة مدبولي ، ٢٠٠٤.ص ٢٢٥.